هَلا وهَيْثَم

تأليف: عبير أنور

رسم: هشام سليمان

«هَيْثَم» و«هَلا» شَقيقان، ولَكِنَّهُما يَخْتَلِفانِ في أُمورٍ عَديدَةٍ. «هَيْثَم» فى الثَّانِيَةِ عَشْرَة و«هَلا» تَكْبرُهُ بِعامَيْن. وهُوَ يُحِبُّ نَفْسَهُ كَثيرًا، وَيَعْتَزُّ بِأشْيائِهِ اعْتِزازًا شَديدًا؛ وهِيَ تُحِبُّ نَفْسَها، ولَكِنَّها تُحِبُّ الآخَرينَ قَدْرَ حُبِّها لِنَفْسِها، ولا تَتَرَدَّدُ يَوْمًا في مُساعَدَةِ كُلِّ مَنِ حَوْلَها. لِهَذا لَيْسَ غَريبًا أنْ يُطْلِقَ أَصْدِقاؤُهُما عَلى «هَيْثَم»: «أنْوى» وعَلى «هَلا»: «عَطاء»؛ ولَيْسَ غَريبًا كَذَلِكَ أنْ تَنْزَعِجَ «هَلا» مِنْ شَقيقِها وأنانِيَّتِهِ المُفْرَطَة. ولِذَلِك، تَجِدُهُ دَوْمًا وَحيدًا في غُرْفَتِه، يَلْعَبُ بِلُعَبِه، أوْ يَتَباهى بِأشْيائِهِ الكَثيرَةِ الثَّمينَةِ الَّتي لا يَمْتَلِكُها أحَدٌ سِواه.

كانَ كُلَّما اسْتَيْقَظَ في الصَّباحِ يُسْرِعُ إلى المِرْآة، ويَنْظُرُ إلى نَفْسِهِ مُعْتَزًّا بِبَياضِ بَشَرَتِهِ وصَفائِها،

وشَعْرِهِ المُسْتَرْسَل، وأسْنانِهِ المُتَراصَّةِ في انْتِظامٍ تَتَلَأْلَأُ كُلَّما ابْتَسَم.

وبِالطَّبْع، لَمْ يَكُنْ يَرى في المِرْآةِ سِوى ذاتِه. وكَثيرًا ما كانَ يُخْرِجُ مَلابِسَهُ الكَثيرَةَ مِنْ خِزانَتِه، ويُجَرِّبُها أَمامَ المِرْآة، ويَظَلُّ هَكَذا لِساعاتٍ. وكثيرًا ما كانَ يَعُدُّها خِشْيَةَ أنْ تَكونَ والِدَتُهُ قَدْ

وَهَبَتْ قِطْعَةً مِنْها لِطِفْلٍ مُحْتاجٍ أو فَقيرٍ!

أمّا «هَلا» فَصَباحُها يَبْدو مُخْتَلِفًا. اليَوْم، هُوَ الجُمُعَة، لِذا سَتَذْهَبُ لِزِيارَةِ صَديقَتِها «مُشيرَة»؛ فَهِيَ مَريضَةٌ مُنْذُ يَوْمَيْنِ، وَفاتَها دَرْسٌ في الحِسابِ ودَرْسانِ في العُلوم.

إذًا، يَنْبَغي أنْ تُصَوِّرَ لَها الدُّروسَ الثَّلاثَةَ قَبْلَ أنْ تَذْهَبَ إلَيْها. كَما يَنْبَغي عَلَيْها أنْ تُفْرِزَ مَلابِسَها؛ فَقَدْ هَلَّ الشِّتاءُ بِبُرودَتِهِ القاسِيَةِ لِتَنْتَقِيَ بَعْضًا مِنْ مَلابِسِها؛ لِتُوَزِّعَها وَالِدَتُها عَلى الفُقَراءِ والمُحْتاجين. ولَنْ تَنْسى أنْ تَمُرَّ عَلى جَدَّتِها في غُرْفَتِها؛ فَهِيَ مَريضَةٌ الآنَ ولا تُغادِرُ المَنْزِلَ إلّا نادِرًا.

«يا هَلا»، نادَتِ الأُمُّ عَلى ابْنَتِها بِصَوْتٍ مِلْؤُهُ الرَّجاء.

– إنّي قادِمَةٌ يا أُمّي.

– هَلِ انْتَهَيْتِ مِنْ تَرتيبِ غُرْفَتِكِ؟

– نَعَمْ يا أُمّي، هَلْ تُريدينَ شَيْئًا آخَر؟

– أُريدُ بَعْضَ الأشْياءِ مِنَ السُّوبِّرْ مارْكِت.

رَدَّتْ «هَلا» وعَلى وَجْهِها ابْتِسامَةٌ عَريضَةٌ:
«سَأشْتَري لَكِ كُلَّ ما تَحْتاجينَهُ بَعْدَ عَوْدَتي مِنْ زِيارَةٍ مُشيرَة».

– لا تَتَأخَّري، فَجَدَّتُكِ بِمُفْرَدِها في غُرْفَتِها.

– لا تَقْلَقي يا أُمّي، سَأُعَوِّضُها عَنْ بُعْدي عَنْها بِمُفاجَأةٍ كَبيرَةٍ!

ابْتَسَمَتْ أُمُّها، وَدَعَتْ لَها بِالبَرَكَةِ والسَّعادَة.

هَكَذا «هَلا» دَوْمًا... ولِهَذا لَها أصْدِقاءُ كَثيرونَ يُحِبّونَها ويَسْعَدونَ بِوُجودِها.

أمّا «هَيْثَم» فَلَمْ يَكُنْ لَهُ أصْدِقاءُ عَلى الإطْلاق,
وقَدْ تَسْألُنِي: ومَنْ هُمْ أصْدِقاؤُهُ إذًا؟
لا تَتَعَجَّبْ فَـ«هَيْثَم» أقامَ صَداقَةً مِنْ نَوْعٍ فَريدٍ مَعَ

مَلابِسِهِ ولُعَبِهِ ومُتَعَلِّقاتِهِ الَّتي يَرْتَبِطُ بِها ارْتِباطًا شَديدًا يَفوقُ ارْتباطَهُ بِالبَشَر!

ودَوْمًا يُرَدِّد: «لَنْ أتَبَرَّعَ بِأيِّ شَيْءٍ مِنْ أشْيائي لِأحَدٍ. كُلُّ ما لَدَيَّ أنا في حاجَةٍ إلَيْه!».

«لَيْسَ لَدَيَّ وَقْتٌ لِرِعايَةِ جَدَّتي. أنا مَشْغولٌ!».

«لَنْ أسْتَطيعَ شِراءَ أيِّ شَيْءٍ مِنَ الخارِجِ الآن!».

«لَنْ أُعيرَ أصْدِقائي أيَّ شَيْءٍ مِنْ مُتَعَلِّقاتي، إنَّها لي وَحْدي!».

وها هُوَ يُسْرِعُ الآنَ إلى مَكْتَبِه، فَوالِدَتُهُ قادِمَةٌ...

بِهُدوءٍ، أخْرَجَ كُتُبَهُ ورَصَّها عَلى المَكْتَب، وتَظاهَرَ أنَّهُ يَدْرُس... عَلى الرَّغْمَ مِنْ أنَّ اليَوْمَ هُوَ إجازَتُهُ الأُسْبوعِيَّة!

فَنَظَرَتْ إلَيْهِ والِدَتُهُ فى صَمْتٍ بَليغٍ، وغادَرَتْ غُرْفَتَهُ عَلى الفَوْر!

فى حِصَّةِ الرَّسْم، كانَ «مُهاب» يَرْسُمُ لَوْحَةً جَميلةً لِلغايَة. وفَجْأةً، نَظَرَ حَوْلَهُ مُتَسائِلًا: «هَلْ مَعَ أحَدِكُمْ لَوْنٌ أخْضَرُ غامِقٌ؟».

فَأسْرَعَ «هَيْثَم» وضَمَّ أصابِعَهُ على عُلْبَةِ الأَلْوان.

بَيْنَما أسْرَعَ كَثيرونَ لِمَنْحِ اللَّوْنِ المَطْلوبِ لِـ«مُهاب»!

نَظَرَ الجَميعُ إلَيْهِ نَظْرَةً حادَّةً، وسَألَهُ «مُعْتَزّ»: «لِماذا أنْتَ أنانِيٌّ بِهَذا الشَّكْل؟».

فَارْتَبَكَ «هَيْثَم»، وقال: «أنا لَسْتُ أنانيًّا. أَلْواني غالِيَةُ الثَّمَن!».

فَرَدَّ «مُنير»: «بِالتَّأكيدِ لَيْسَتْ أغلى مِنْ قِيمَةِ أيِّ زَميلٍ مِنْ زُمَلائِكَ!».

وقالَ «باهِر»: «كُنْتَ الأوْلى أنْ تُساعِدَ زَميلَكَ الَّذي يَجْلِسُ مُلاصِقًا لَكَ. فَأَنْتَ أقْرَبُ واحِدٍ إلَيْه».

واسْتَكْمَلَ «شادي»: «أنا أتَعَجَّبُ كَيْفَ تَكونُ

شَقيقًا لِـ هَلا!».

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْم، صَمَّمَ الجَميعُ عَلى مُقاطَعَتِه.

وانْضَمَّ «مُهاب» لِلجُلوسِ مَعَ زُملاءَ آخَرين، وقالَ لَهُ مُتَأَلِّمًا: «لَنْ أجْلِسَ بِجِوارِكَ بَعْدَ اليَوْم!».

اليَوْمُ يَمْضي بَطيئًا مُمِلًّا. فَـ«هَيْثَمُ» يَجْلِسُ وَحيدًا، ويَلْعَبُ في المَلْعَبِ وَحيدًا. يَقْطَعُ فِناءَ المَدْرَسَةِ

ذَهابًا وإيابًا... وَكَثيرًا ما يَخْتَلِسُ النَّظَرَ إلى زُملائِهِ وهُمْ يَلْعَبونَ مَعًا، ويَقولُ في نَفْسِهِ مُتَحَسِّرًا:

«إنّي أغْبِطُهُمْ عَلى سَعادَتِهِمْ ومَرَحِهِمْ وقُدْرَتِهِمْ عَلى الاسْتِمْتاعِ بِوَقْتِهِمْ مَعًا».

«دادَةُ أمينَة»، العامِلَةُ في المَدْرَسَة، تَمُرُّ بِمِحْنَةٍ قاسِيَةٍ؛ ابْنَتُها ستُجْرَى لَها عَمَلِيَّةٌ جِراحِيَّةٌ الأُسْبوعَ القادِمَ وتَكالِيفُها باهِظَةٌ. قَرَّرَتْ «هَلا» وأصْدِقاؤُها أنْ يَجْمَعوا لَها تَبَرُّعاتٍ مِنَ التَّلاميذِ جَميعِهِم؛ لِلمُساهَمَةِ في تَكاليفِ العَمَلِيَّة.

عِنْدَما وَصَلَتْ «هَلا» إلى المَنْزِل، أسْرَعَتْ إلى غُرْفَةِ جَدَّتِها، وحَكَتْ لَها مَوْضوعَ العَمَلِيَّة؛ فَمَنَحَتْها جَدَّتُها مَبْلَغًا مِنَ المال. ثُمَّ أسْرَعَتْ إلى غُرْفَتِها، وأفْرَغَتْ ما في «القُجَّة»، ونَظَرَتْ

حَوْلَها مُتَسائِلَةً: «ألا يُوجَدُ شَيْءٌ آخَرُ يُمْكِنُني التَّبَرُّعَ بِه؟».

وجالَتْ بِنَظَرِها في الغُرْفة، ثُمَّ صاحَتْ بِسَعادَةٍ: «ها هُوَ شالي الصُّوفيُّ الأحْمَر!».

وهِيَ خارِجَةٌ مِنْ غُرْفَتِها، لَمَحَتْ «هَيْثَم» واقِفًا عَلى بابِ غُرْفَتِه. اقْتَرَبَ مِنْها وسَألَها: «هَلا ما بِكِ؟».

نَظَرَتْ إلَيْهِ نَظْرَةً حَزينَةً، وقالَت: «وهَلْ لَوْ قُلْتُ لَكَ ما بي، هَلْ سَتَفْعَلُ شَيْئًا؟».

فَرَدَّ مُحْتَدًّا: «لِماذا تَتَعامَلونَ مَعي وكَأَنَّني غَيْرُ مَوْجودٍ بَيْنَكُم؟».

«أَنْتَ الَّذي سَحَبْتَ نَفْسَكَ مِنْ عالَمِنا ونَسَجْتَ بِأَنانِيَّتِكَ عالَمًا خاصًّا بِكَ»، هَكَذا قالَتْ «هَلا».

فَرَدَّ بِغَضَبٍ: «لَيْسَ عَيْبًا أنْ أُحِبَّ نَفْسي وأعْتَزَّ بِأشْيائي!».

– التَّأْكيدِ لَيْسَ عَيْبًا. لَكِن، حاوِلْ أنْ تُفَكِّرَ لَحْظَةً بِأحَدٍ غَيْرِ نَفْسِكَ!

– أنا لَسْتُ في حاجَةٍ لِأحدٍ، لَدَيَّ كُلُّ شَيْءٍ!

– لَيْسَ كُلَّ ما يَرْبُطُنا بِالآخَرينَ الاحْتِياجُ المادِّيّ. هُناكَ مَعانٍ وقِيَمٌ كَثيرَةٌ، يَبْدو أنَّكَ عاجِزٌ

عَنْ فَهْمِها! وتَذَكَّرْ أنَّ قيمَةَ كُلٍّ مِنّا تَتَحَدَّدُ بِقيمَتِهِ عِنْدَ الآخَرين!

وتَرَكَتْهُ واتَّجَهَتْ نَحْوَ والِدَيْها، وكَما فَعَلَتْ جَدَّتُها فَعَلَ والِداها. وعِنْدَما هَمَّتْ بِالانْصِراف، سَألَها والِدُها: «وماذا عَنْ هَيْثَم ؟!».

فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِها، ولَمْ تَرُدّ!

نَجَحَتْ «هَلا» وزُمَلاؤُها بِمُعاوَنَةِ بَعْضِ المُدَرِّسينَ

في جَمْعِ مَبْلَغٍ مَعْقولٍ، وذَهَبَ وَفْدٌ مِنَ التَّلاميذِ إلى المُسْتَشْفى، وبِالطَّبْعِ لَمْ يَكُنْ «هَيْثَم» مِنْ بَيْنِهِم...

هُوَ الآنَ يَجْلِسُ وَحيدًا في فِناءِ المَدْرَسَةِ كَعادَتِهِ دَوْمًا، والجَميعُ مُنْهَمِكٌ في اللَّعِبِ مَعًا. أخَذَ يُفَكِّرُ ويَقولُ في نَفْسِه: «أظُنُّ أنَّهُ لا مُبَرِّرَ لِذَهابي إلى المَدْرَسَة. إنَّني لا أجِدُ أدْنى مُتْعَةٍ في بَقائي

بِها. كَما أَنَّني أجْلِسُ وَحيدًا في البَيْت.، فَوالِدي ووالِدَتي بِاسْتِمْرارٍ غاضِبانِ مِنّي، وجَدَّتي هِيَ الأُخْرى تَقولُ لي كُلَّما رَأتْني: سَتَتْعَبُ كَثيرًا إنْ لَمْ تُغَيِّرْ ذاتَكَ!

وهَلا لَمْ تَعُدْ تُرَحِّبُ بِوُجودي مَعَها، وتُرَدِّدُ مِثْلَهُم: أَنَّني أنْوى».

وكادَ أنْ يَقولَ إنَّهُ لا مُبَرِّرَ لِعَوْدَتِهِ إلى المَنْزِل. ولَكِنْ في تِلْكَ اللَّحْظَة، شَعَرَ بِحُزْنٍ شَديدٍ وتَساءَل: «أيْنَ سَأذْهَبُ حينَذاك؟!».

ولَكِنَّهُ رَدَّ بِعَنادٍ: «لاشَيْءَ يُهِم!».

في حَقيبَتِهِ قِطْعَتانِ مِنَ الحَلْوى، أخَذَهُما وخَبَّأهُما بَعيدًا عَنْ أُسْرَتِه؛ لِيَأْكُلَهُما وَحْدَهُ في غُرْفَتِه، وقالَ في نَفْسِه: «سَأضَعُهُما في خِزانَتي

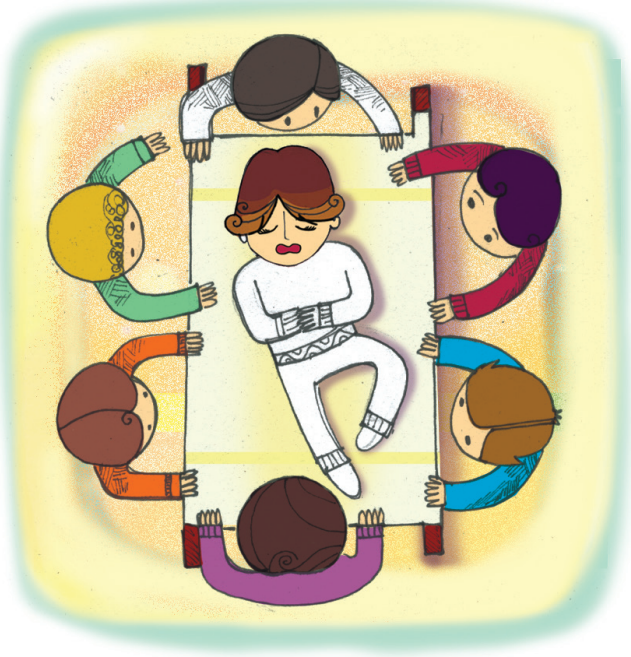

فى عُلْبَةِ كَرْتونٍ قَديمَةٍ؛ حَتّى لا يُلْفِتا أنْظارَ هَلا أوْ ماما!».

ونَسِيَهُما في الخِزانَة! واليَوْم، قَرَّرَ أنْ يَأْكُلَهُما.

في خِلْسَةٍ مِنَ الجَميع، أَخْرَجَ قِطْعَةَ الحَلْوى الأولى، تَلَفَّتَ حَوْلَه، ولَمّا تَأكَّدَ أَنَّهُ لا أحَدَ يَراهُ

الْتَهَمَها بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ أخْرَجَ الثّانِيَةَ والْتَهَمَها بِسُرْعَةٍ كَذَلِك. كانَ طَعْمُهُما يَبْدو غَريبًا بَعْضَ الشَّيْء، لَكِنَّهُ رَدَّدَ في نَفْسِهِ بِاسْتِهانَةٍ: «لا يَهُمّ، يَنْبَغِي أنْ أُسْرِعَ بِتَناوُلِهِما قَبْلَ أنْ يَأْتِيَ زُمَلائي، ويُرَدِّدونَ اللَّفْظَ البَغيضَ عَلى مَسْمَعي كُلّما شاهَدوني أتَناوَلُ طَعامي!

فى لَحَظاتٍ قَليلَةٍ، حَدَثَ شَيْءٌ عَجيبٌ!

لا يَذْكُرُ «هَيْثَم» كَمْ مَرَّ مِنَ الوَقْت، لَقَدْ أصابَتْهُ آلامٌ شديدَةٌ في مَعِدَتِه. وبَدَأَ يَتَلَوّى عَلى الأرْض، وشَعَرَ بِالفَزَع!

«لَيْسَ مِنَ المُتَوَقَّعِ أنْ يَهْرَعَ لِنَجْدَتي أحَدٌ. إذًا، فَالْمَوْتُ لا مَحالَةَ مَصيرُ مَنْ كانَ أنْوى مِثْلي!»، هَكَذا قالَ في نَفْسِه.

لَمْ يَطُلْ بِهِ الوَقْت، فَلِدَهْشَتِهِ حَمَلَهُ زُمَلاؤُهُ وهَرَعوا

بِهِ إلى غُرْفَةِ الطَّبيبَة.

«إنَّها حالَةُ تَسَمُّمٍ بِلا شَكٍّ، يَنْبَغِي أنْ يُنْقَلَ فَوْرًا إلى المُسْتَشْفى»، هَكَذا قالَتِ الطَّبيبَة.

أسْرَعَ زُمَلاؤُهُ وحَمَلوهُ مَرَّةً أُخْرى داخِلَ سَيّارَةِ الإسْعافِ لِأقْرَبِ مُسْتَشْفى.

الجَميعُ يُحيطونَ سَريرَهُ في المُسْتَشْفى، والجَميعُ يَتَأَلَّمونَ لِأَلَمِه!

قالَ «مُهاب»: «خُذوا مِنْ دمي وأَنْقِذوه!».

ولَكِنَّ الطَّبيبَ قال: «شُكْرًا يا وَلَدي، إنَّهُ لَيْسَ في حاجَةٍ إلى دَمٍ».

ثُمَّ تَساءَل: «مَنْ مِنْكُمْ يُحْضِرُ لي هَذا الدَّواءَ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِن؟ إنَّهُ غَيْرُ مُتَوَفِّرٍ بِكَمِّيّاتٍ كَبيرَةٍ في الأَسْواق».

فَصاحَ الجَميعُ بِصَوْتٍ واحِدٍ: «أنا...».

وذَهَبَ «مُنير».

وقالَ «شادي»: «أنا سَأبيتُ مَعَهُ اللَّيْلَة».

مِنْ عَلى كُرْسِيِّها المُتَحَرِّك، صاحَتْ جَدَّتُهُ بِحُنُوٍّ بالِغٍ: «لَنْ يُرافِقَهُ أحَدٌ سِواي!».

فَنَظَرَ إلَيْها بِإعْياءٍ وهَمَّ أنْ يَقولَ شَيْئًا، ولَكِنَّهُ بَكى...

مَرَّ أُسْبوعٌ، وعادَ «هَيْثَم» مِنَ المُسْتَشْفى. تُرى أيْنَ هُوَ الآن؟

إنَّهُ لَيْسَ في غُرْفَتِه. آهْ نَسيتُ أنْ أقولَ لَكُمْ إنَّهُ الآنَ في غُرْفَةِ جَدَّتِهِ يَضْحَكانِ مَعًا، بَعْدَ أنْ تَذَكَّرا مَوْضوعَ قِطْعَتَي الحَلْوى اللَّتَيْنِ تَناوَلَهُما بِبودْرَةِ الحَشَراتِ الَّتي رَشَّتْها وَالِدَتُهُ في الخِزانَةِ مِنْ دونِ أَنْ تَعْلَمَ بِأَمْرِهِما شَيْئًا!

عِنْدَما دَخَلَ غُرْفَتَه، لَمَحَ مِرْآتَه، نَظَرَ إلى نَفْسِهِ كَالمُعْتاد... وَيا لَلعَجَب! إنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَتَبَيَّنُ مَلامِحَه، فَلَمْ يَسْتَوْقِفْهُ بَياضُ بَشَرَتِهِ وصَفاؤُها، وشَعْرُهُ المُسْتَرْسَل، وأسْنانُهُ المُتَراصَّةُ بانْتِظامٍ تَتَلَأْلَأُ كُلَّما ابْتَسَم، بَلِ اكْتَشَفَ وُجوهًا صَغيرَةً كَثيرَةً لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُها جَيِّدًا... عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ كانَ يُقابِلُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ، ويُمْضي اليَوْمَ كُلَّهُ بَيْنَهُم... إنَّها وُجوهُ «هَلا»، «مُهاب»، «منير»، «شادي»، «باهِر» وباقي تَلاميذِ صَفِّه. إنَّهُ يَعْرِفُ الآنَ مَعْنى السَّعادَةِ الحَقيقِيَّةِ لِلمَرَّةِ الأولى في حَياتِه.

وعِنْدَما فَتَحَ خِزانَتَهُ وفَحَصَ مَلابِسَهُ ولُعَبَه، تَذَكَّرَ «هَلا» وقال مُبْتَسِمًا: «سَتَسْعَدينَ كَثيرًا يا هَلا بِالمُفاجَأةِ الَّتي أعْدَدْتُها لَكِ!»...